مفهوم الحضارة وقرآنية المصطلح من المعنى المعجمي إلى المعنى القرآني- قراءة هرمنيوطيقية

أ.م.د. عباس أمير معارز*

جامعة القادسية / كلية التربية

University of Al-Qadisiyah

abbas.muariz@qu.edu.iq

ملخص البحث

- إن فهم الإطار القرآني للحضارة، يعني ابتداء التوقف عند نسبة هذا المشروع إلى القرآن بعدّه نصّا دينيا، وما يترتب على هذه النسبة من لزوم نظر في الأطر المنهجية والدلالية لمفهوم الدين نفسه.

- لعله ليس صحيحا اجتزاء فهم الحضارة ودراسة منهجياتها وفضاءاتها الاجتماعية بمعزل عن لغاتها، ذلك أن هذا العزل يفضي إلى طمس هوية الحضارة وإرباك ممارسة معرفتها.

- تشكّل الصفة الحضارية وتميّز المشروع الحضاري لأية أمة أمران مشروطان ابتداء بممارسة عملية تغييب سلوكي للأصول التاريخية السابقة لتشكّل الهوية الحضارية للمجتمع. أما ما يتعلق بالأصول الفاعلة والنافعة فلا بد من ممارسة عملية هضم وتمثّل مجتمعي وحضاري لها بما يجعل منها مُضْمَرا في فضاء النموذج الجديد.

- النموذج الحضاري لأمة منالأمم مشروط بامتلاك رؤية خاصة لمقصد الوجود، وبضمنه وجود الإنسان نفسه.

- امتلاك الأمة لمقوماتها الحضارية المعنوية يعني امتلاكها وعيا حادا بسرّ بقائها المتمثّل بطاقتها الروحية والمعنوية ، فإن فقدت الأمة بوصلة الوعي والاستشعار تلك فقدت إمكان بقائها حضاريا.

- المواجهة الأهم بين الأمم، هي مواجهة حضارية، بل إن بقاء الأمة مرهون بما تقدّمه بعدّهِ همّها الوجودي وسابقتها الثقافية التي تتولى مهمة الصدّ الحضاري حينما يقضي السياق التاريخي بذلك.

DOI: 10.18018/URUK/017-10/133-143

المقدمة

يفترض البحث ابتداء أن البنية المكوّنة لمفهوم الحضارة بشقّيْه؛ المادي والمعنوي، بنية محايدة ابتداء طالما أنها لم تحدد بمكان وزمان وأفراد فاعلين، فإذا قيّدتها الصفة مكانية كانت أم زمانية أو بشرية، امتلكت هويتها الابيستيمولوجية والثقافية والمجتمعية. ومن هنا، يذهب البحث إلى التأسيس لمفهوم آخر للحضارة، يستند في تشييده إلى الفضاء الابيستيمي المعرفي الذي يشتمل على مكونات المصطلح ومظاهره الدلالية أولا، وعلى المادة اللغوية التي أصّلت لتاريخه الوجودي والاجتماعي متمثلة بمادة (حضر). وهذا يعني أن الوعي الإبستمولوجي بالمفهوم يستلزم نوع مقاربة دلالية ومعرفية تبحث في المعنى بحثا تأويليا يعمل على ردّ البنية المفهومية بشقّيْها المكوّنَيْن؛ القرآني واللغوي، إلى أصلها الهرمنيوطيقي.

وبغية الوصول إلى أهداف البحث التي تشتمل عليها فرضيته الأولى، يعمل البحث على مقاربته المنهجية لموضوعه استنادا إلى أداتين تحليليتين، هما؛ المدونة المعجمية والنص القرآني. وكل ذلك، ينهض على ثلاثة محاور، هي؛ الحضارة بين الصفة والموصوف، والرؤية الحضارية، و الشروط الحضارية.

أولا: الحضارة بين الصفة والموصوف

يؤكد فلاسفة التاريخ وعلماؤه أن بدء خروج الإنسان من واقعه البدائي إلى مجال الألفة والتجمع وإبداع الحضارات مرتبط ارتباطا وثيقا ببدء التاريخ بشخصين اثنين؛ ذكر وأنثى، ثم اتساع الشبكة الاجتماعية وتوالي مرات التكثّر والانتشار، وهو ما جعل من ذيْنك الشخصين شعوبا وقبائل متعددة الألوان والأجناس ثم متعددة الأفكار، الأمر الذي أخرج الإنسان من حقبة البدائية إلى حقبة الحضارة[1]. وهذا ما يؤكده القرآن الكريم بقوله؛ ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً))[2]، وقوله، وهو يتوقف عند اتساع الشبكة الاجتماعية، بعد اتساع مرّات التكثّر المجتمعي، وما ترتّب عليه من اختلاف بعد اتفاق؛ ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))[3]. ويترتّب على ذلك التعدد المجتمعي تعدد السياقات الاجتماعية والثقافية الحضارية الموجهة لذلك الاختلاف، ومن ثم تعدد أدوات المعرفة ومناهجها الضابطة لها، وهذا ما يتوقف عنده القرآن مرة أخرى، مبيّنا أثره في ترسيم ملامح التمايز الحضاري، فيقول؛ ((لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ))[4].

ولعل تتبّع مصطلح (حضارة) في اللغة العربية أو ((civilization)، و (culture) في اللاتينية وما تولّد منها من اللغات الأوربية عامة واللغة الإنجليزية خاصة، يخلص بنا إلى أن للمصطلح جنبتين متراتبتين، تاريخيا ومعرفيا، هما؛ الجنبة الاجتماعية والجنبة الثقافية. أما الجنبة الاجتماعية، فتشتمل على معاني الإقامة والاستقرار في الحضر أو المدن. وأما الجنبة الثقافية فمترتبة في وجودها على الجنبة الأولى ومرتبطة بها، وتشتمل على معاني حرث الأرض وإنمائها، وهذا المعنى مرتبط تاريخيا بالنشأة الأولى للحضارة، وهي، لا شك،

نشأة زراعية. أما المعنى الثاني للإنماء والتنمية فهو ما يترتب على الاستقرار في المدن والحواضر من انتظام فنون الملك والإدارة ومكاسب العيش، والصنائع والعلوم ، ووسائل الدعة والرفاه، وهذا ما أكسب كلمة (حضارة) معنى الثمار الثقافية العقلية والأدبية والذوقية لذلك الاستقرار الاجتماعي لقوم ما من الأقوام في المدن والحواضر[5]. وهذا المعنى المفضي إلى شرط المدينية في الحضارة توقف عنده القرآن الكريم مشيرا إليه تحت مصطلح (قرية) و مصطلح؛ (مدينة)1- حينما تكون عين الآية ناظرة إلى المكان والمكين وما يتصل بهما من قيم مادية ومعنوية مستقرة ونامية، وتحت مصطلح (أمة) حينما يكون اللحاظ القرآني قاصدا مجموع الأفراد المشكلين لمجتمع يمتاز بتعددية من القيم المعنوية والاعتبارية، مع غض النظر عن المكان، ولكنه حينما ينظر إلى المكان يبين عن إرادته بمصطلح؛ (بلد) أو (بلاد). أما حينما يقصد جمعا من الأفراد الذين يجمعهم لسان واحد وثقافة واحدة، مع2- غض النظر عن عددهم وعدّتهم وانتمائهم إلى المكان والزمان، وبصرف النظر عن استجابتهم للمعطى الحضاري الإيجابي، فيبين عن ذلك تحت مصطلح؛ (قوم). فيقول تحت العنوان الأول؛ ((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ))[6]، كذلك قوله؛ ((وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ))[7]. ويقول بلحاظ المصطلح الثاني؛ ((مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا3- جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ))[8]، ويقول تحت عنوان (بلد) و(بلاد)؛ ((مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ))[9]، أما إبانته عن معنى الجمع البشري غير معتدّ فيه بالزمان والمكان فنلحظه في قوله؛((حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا))[10].

وهنا يبدو لنا أن مما نحتاج إلى تطلّبه والتأمل فيه، ونحن نقيّد الموصوف؛ (حضارة) بقيد الصفة؛ (إسلامية) هو؛

بنية المفهوم؛ المكوَّنة من عنصرين؛ (الحضارة)،(الإسلامية)، وهذا يعني أن الوعي الإبستيمولوجي بالمفهوم يستلزم نوع مقاربة دلالية ومعرفية تبحث في المعنى بحثا تأويليا يعمل على ردّ البنية المفهومية بشقَّيْها المكوِّنَيْن إلى أصلها الهرمنيوطيقي، ولا خفاء أن الأصل الابستيمولوجي والوجودي لمفردة (حضارة) هو المعجم، وأن الأصل عينه الذي لنا أن نرد إليه مفردة (الإسلام) هو القرآن.

نسبة الحضارة إلى الدين، وهذا يعني أن الأصول المعرفية التي يتوجب علينا تعليق مفهوم الحضارة بها لأجل معرفتها وفحص منهجياتها، ومن ثم تقييمها، مرتبط ارتباطا وثيقا بأصول دينية. بل إن معنى الحضارة، وبلحاظ تشكل ذلك المعنى اجتماعيا وثقافيا وهو يجري في فضاء التاريخ، معنى محايد تماما، ويبقى كذلك إطارا تاريخيا ما لم ينصبغ بصبغته المميزة له، وما صبغته هاهنا- بلحاظ عنوان هذا البحث على الأقل- إلا صفته التابعة له لغويا، والسابقة له معرفيا، ألا وهي صبغة (القرآن).

والأهمّ المقدَّم الذي إذا عُرف ترتّب على معرفته كثير المعاني وعديدها هو توطين النشاط الاجتماعي والثقافي للأمة وإقراره حيث مورده ومنبع ريّه الذي ينهل منه بقاءه تاريخيا ووجوديا. وليس المورد الذي

DOI: 10.18018/URUK/017-10/133-143

نـؤي إليـه مفهـوم الحضـارة الإسـلامية بغيـة فهمـه حـق فهمـه، أصـالة، سـوى الـنص القرآنـي، بلحـاظ أن الـنص القرآنـي هـو الـنص الأول المكـوّن إبسـتيمولوجيا لمفهـوم الإسلام من حيث هو ممارسة سلوكية مجتمعية.

والمنظـور إليـه الـذي يجـب التزامـه ويتعـيّن إحكامـه، بعـد الـذي عُـرف، هـو؛ إن النمـوذج النصـيّ القرآنـي للحضـارة شـيء، وتمثّـل ذلـك النمـوذج ومـرّات أدائـه عبـر الحقـب التاريخيـة للفضـاء الحضـاري الإسـلامي شـيء آخـر. وهنـا يصـير واضـحا أننـا بـإزاء مـا يمكـن أن نسـميه؛ (الأداء الحضـاري) لمفهـوم الحضـارة فـي الإسـلام، قاصـدين بـه نـوع الفعـل البشـري الـذي يمارسـه المجتمـع ومقـداره سـواء كـان عقليـا أم أخلاقيـا أو اجتماعيـا أو مهنيـا أو ثقافيـا، اسـتنادا إلـى مقاربتـه للـنص المؤسـس لهويتـه الحضـارية. ذلـك أنـه ((لا يمكـن فصـل الجماعـة عـن الحضـارة إطلاقًـا، فـلا وجـود لحضـارة دون جماعـة بشـرية))[11]، وأن ((لكـل حضـارة نطاقهـا (Aire)، وطبقاتهـا (Couches)، ولغاتهـا (Langue's). فنطاقهـا هـو حـدودها الجغرافيـة، وطبقاتهـا هـي آثارهـا المتراكمـة بعضـها فـوق بعـض في مجتمـع واحـد، أو في عـدة مجتمعـات. ولغاتهـا هـي الأداة الصـالحة للتعبيـر عـن الأفكـار السياسـية والتاريخيـة والعلميـة والفلسـفية))[12]. والـذي بنـا حاجـة إليـه، ونحـن نجهـد في دراسـة النـوع الحضـاري، هـو النظـر فـي ذاك النـوع بمحدداتـه كلّهـا؛ النطـاق، والطبقـات، واللغـة. أمـا أن تُجتـزأ دراسـة الحضـارة ويُكتفـى لتوصـيفها وتقييمهـا بنطاقهـا وطبقاتهـا دون لغاتهـا، فهـذا يعنـي، خاصـة مـا يتعلـق بالحضـارة الإسـلامية، طمـس هويـة الحضـارة وإربـاك ممارسـة معرفتهـا، ذلـك أن لا قـدرة علميـة وافيـة علـى معرفـة الهويـة الإسـلامية للحضـارة إلا مـن جهـة مـا يميـز هـذه الحضـارة مـن غيرهـا مـن الحضـارات، وهـو أنهـا تسـتند في مبـررات وجودهـا التـاريخي إلـى منظومـة مفهوميـة حضارية ذات مرجعية لغوية.

وتمهيـدا لرؤيـة أخـرى لمفهـوم الحضـارة، بصـفتها الإسـلامية، سـنقتفي هَـدْي المعجـم ونتتبّـع أثـره وهـو يعـرض لنـا مـن معـاني الأصـل اللغـوي (حضـر) فيتكشّـف لنـا بـذلك التقفّـي مـا نتجـاوز بـه المقـدار السـابق مـن التعرّف إلى غيره.

جـاء في لسـان العـرب؛ الحُضـورُ نقـيض المَغيـب والغَيْبـةِ، والحضـرة؛ قـرب الشـيء، وكلَّمتُـه بِحَضْـرَةِ فـلان وبمَحْضَـرٍ منـه أي بِمَشْـهَدٍ منـه، والحاضـر المقـيم في المُـدُنِ والقُـرَى، والحِضـارَةُ الإقامـة في الحَضَـرِ، ويقـال للمقـيم على المـاء حاضـرٌ وجمعـه حُضُـورٌ وهـو ضـدّ المسـافر وكـذلك يقـال للمقـيم شـاهدٌ، وحُضِـرَ المـريض واحْتُضِـرَ إذا نـزل بـه المـوتُ، والعـرب تقـول اللَّـبَنُ مُحْتَضَـرٌ ومَحْضُـورٌ فَغَطِّـهِ أي كثير الآفـة يعني يَحْتَضِـرُه الجـنّ والـدواب وغيرهـا مـن أَهـل الأَرض، والحَضِـيرَةُ جماعـة القـوم وقيـل الحَضِـيرَةُ مـن الرجـال السـبعةُ أَو الثمانيـةُ، حَضِـيرَة العسـكر مقـدّمتهم، والحَضِـيرَةُ الصَّـاءَةُ تَنْبَـعُ السَّـلَى وهـي لفافـة الولـد، والحَضْـرَةُ الشِّـدَّةُ، والمَحْضَـرُ السِّـجِلُّ، والمُحاضَـرَةُ المجالـدة وهـو أَن يغالبـك على حقـك فيغلبـك عليـه ويـذهب بـه، وحاضَـرْتُه جاثيتـه عنـد السـلطان، واحْتَضَـرَ الفـرسُ إذا عـدا واسْتَحْضَرْتُه أَعْدَيْتُه[1].

ولعـل قـراءة تحليليـة متأنيـة للاسـتعمالات الاجتماعيـة السـابقة التـي ينحـلّ إليهـا الأصـل (حضـر) تكشـف لنـا عـن الجنبـة السوسـيولوجية الاجتماعيـة العربيـة للحضـارة، وهي الجنبـة التي يرتكـز عليها السـياق القرآنـي للمشـروع الحضـاري الإسـلامي، باعثـا فيهـا الحيـاة ومانحـا لهـا صـبغتها الخاصـة، ومؤسسـا لحـدودها المفهومية وحقلها المعرفي.

DOI: 10.18018/URUK/017-10/133-143

وهذا ما سنتوقف عنده ، بما يحقق لنا معرفة بالرؤية المجتمعية العربية والقرآنية للحضارة، ومعرفة أخرى بالشروط العربية والقرآنية لقيام مشروع حضاري.

ثانيا: الرؤية الحضارية:

1- لعل قولهم؛ (الحُضورُ نقيض المَغيب والغَيْبةِ)، يتيح لنا القول؛ إن تشكّل الصفة الحضارية وتميّز المشروع الحضاري لأية أمة أمران مشروطان ابتداء بممارسة عملية تغييب سلوكي للأصول التاريخية السابقة لتشكّل الهوية الحضارية للمجتمع، بكل ما تمثله تلك الأصول من بداوة ووحشية وهمجية وعدم استقرار. أما ما يتعلق بالممارسات الفاعلة والنافعة والقابلة للعيش اجتماعيا وثقافيا مما ظل حيّا حتى ولادة النموذج الحضاري الجديد، فتلك مما يتمثل تغييبها بممارسة عملية هضم وتمثّل مجتمعي وحضاري لها بما يجعل منها مُضْمَرا في فضاء النموذج الجديد. أما الضابط القرآني لبقاء الممارسة السابقة من عدمها فهو مدى ما تقدمه الممارسة من أسباب البقاء والنماء للنموذج الجديد، أي مدى خيرية الممارسة وشرفيتها والاتفاق على حسنها وخيرها وقبولها فطرةً ونفساً وعقلاً بالنسبة إلى الفرد وبالنسبة إلى الجماعة ضمن النموذج الحضاري الجديد. وهذا ما يؤكده القرآن الكريم بقوله، وهو يجمل خيرية النموذج الحضاري الإسلامي، بآيتين رئيستين، فيقول؛ ((كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ))[14]، ويقول ضابطا تينك الجنبتين وطريقة أدائهما؛ الواقعية ممثلة بممارسة المعروف والأمر به والانتهاء عن المنكر والأمر بالانتهاء عنه، والغيبية المعنوية ممثلة بالإيمان بالله، فيقول؛ ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا))[15].

2- وبدلالة قولهم؛ (الحضرة؛ قرب الشيء، وكلَّمتُه بِحَضْرَةِ فلان وبمَحْضَرٍ منه أي بِمَشْهَدٍ منه... وكذلك يقال للمقيم شاهدٌ)، نخلص إلى أن النموذج الحضاري لأمة من الأمم مشروط بامتلاك رؤية خاصة لمقصد الوجود الكوني وبضمنه وجود الإنسان نفسه، ما يعني امتلاك رؤية أصيلة لما يمكن أن يحافظ على الدعائم البشرية الضامنة لديمومة هذا الوجود بلحاظ مركزية الإنسان وأفضليته وقدرته المميزة مقارنة بالموجودات الأخر. ولعل أتمّ حال من أحوال الشهود، هو حال الشهود المعرفي الذي يحقق بموجبه الإنسان معرفته بنفسه وبمقصد وجوده ضمن رؤية توحيدية متناغمة لا يعارض فيها الجزء الكل، ولا يناقض لأجلها مقصد الكل مقاصد الأجزاء المنضوية تحته. يقول تعالى؛ ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ () أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ))[16]. ولا شك أن امتلاك شرف الشهود الحضاري مرهون بالتحقيق الأتم لكرامة الإنسان، تلك الكرامة التي أشار إليها القرآن الكريم، وهو يؤسس للمستندات الحضارية الأولى لبناء المجتمع الإسلامي، وذلك حيث يقول في الآيات الخمس الأُوَل من سورة العلق، السورة الأولى نزولا؛ ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ () خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ () اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ () الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ () عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)).

DOI: 10.18018/URUK/017-10/133-143

وبلحاظ آخر، يبدو أن دعوى أمة من الأمم امتلاكها صفة الشهود الحضاري مرتبطة ارتباطا وثيقا بامتلاك الأمة الدليل الحضاري على وجودها، وليس كمثل اختلافها الحضاري دليلا على وجودها، يقول سبحانه؛ ((لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ))[17].

3-وبمقاربة تأويلية للسياق المعجمي؛ (وحُضِرَ المريض واحْتُضِرَ إذا نزل به الموتُ... والعرب تقول اللَّبَنُ مُحْتَضَرٌ ومَحْضُورٌ فَغَطِّهِ أي كثير الآفة يعني يَحْتَضِرُه الجنّ والدواب وغيرها من أهل الأَرض... والحَضْرَةُ الشِّدَّةُ)، نخلص إلى أن المشروع الحضاري لكل أمة من الأمم ذو جنبتين مادية ومعنوية روحية، وأن الجنبتين متعالقتان متداخلتان، بما يسمح لكل منهما بالتأثير في الأخرى، مع فارق مفاده أن الجنبة المعنوية الروحية للحضارة غير قابلة للموت بالمقدار الذي تتصف به الجنبة المادية، بل إن امتلاك الأمة لمقوماتها الحضارية المعنوية كفيل ببقائها بما يستدعي دفع أسباب زوال الأمة حضاريا، شرط أن تمتلك الأمة وعيا حادا باشتمالها على سرّ بقائها المتمثّل بطاقتها الروحية والمعنوية، فضلا عن استشعارها بحضور روحها وهي تسعى لتلبية حاجاتها المادية، فإن فقدت الأمة بوصلة الوعي والاستشعار بشرطَيْها السابقين فقدت إمكان بقائها وأذِنَت للعلل والمفاسد أن تتخلل بنيتها المادية، وحينها سيكون ذاك التخلل السريع إيذانا بزوال مشروع الأمة حضاريا. نعم سيبقى لبنيان الأمة ما يدل على وجوده، ولكن الوجود هاهنا وجود أجوف، لأن جسد الأمة هاهنا، وقد أسرعت في التمكّن منه علل البطر والترف الماديين، عاجز عن تحقيق نوع تكافؤ وجودي مع روحها المعنوي. وكأن آفة الأمة التي تسارع في عرَض هلاكها هي انشغالها بجنبتها المادية بما يتعارض مع المقومات المعنوية لوجودها. وهذا ما يؤكده السياق القرآني، وهو يتوقف عند الشرائط الرئيسة لديمومة مشروع الأمة، إذ يقول؛ ((وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ))[18].

ومن جهة أخرى يبدو مشروع الأمة ضعيفا سريع الآفة إن لم يكن ثمة ما يدفع عنه أسباب اعتلاله المتمثلة هذه المرة بمناهضة المشروع عسكريا فضلا عن منافسته فكريا وثقافيا واقتصاديا، ولأجل حماية المشروع وديمومته والحفاظ على منجزاته، ينبري القرآن للقول؛ ((وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ))[19]. والقرآن هنا يؤكد على مجمل قضايا منها؛

آ- حالة التأهب المعنوي والمادي التي يجب أن يكون عليها القائمون على المشروع الحضاري بغية التعاطي مع بيئة التحديات الحضارية.

ب-لا فرصة لبقاء المشروع وديمومته ونموه الحضاري ما لم يُهيّأ للمشروع الأسباب الضامنة لبقائه، وهي شقّان؛ أسباب القوة المدنية ممثلة بالنضج الفكري والثقافي وما يترتب عليه من رؤى سياسية واقتصادية ناضجة قادرة على تزويد فكر الحضارة بوقود البقاء، وهذا ما دعا القرآن الكريم إلى تهيئته وامتلاك أهبته حينما تكون المواجهة الحضارية مواجهة التنافس، إذ يقول؛ (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ). أما السبب الثاني الذي يقف عند خط المواجهة الحضارية حينما تكون المواجهة مواجهة التصارع الوجودي لأجل

البقاء، فهو ما يتعلق بالقوة العسكرية المطلوب إعدادها ممثلة بـ(رباط الخيل).

ج- إن فعل الأمر (أَعِدُّوا) والفعل الماضي؛ (اسْتَطَعْتُمْ) اللذين اشتملت عليهما الآية الكريمة يستدعيان معنى ديمومة التهيئة وبذل الجهد في تطويع القوة وتنمية-2 مواردها وإعادة تدوير موادها واستظهار ما يمكن استظهاره من مكامن القدرة والبقاء ضمن شروط المكان والزمان وحتمية التغيير والحداثة، وإلا فإن المشروع الحضاري المنكفئ على ذاته والناظر بكلتا عينيه إلى الماضي دونما قدرة على تهيئة منجز الماضي وتطويعه كيما يقدم نموذجه الحي والمضارع والمستقبلي هو نموذج محكوم بالزوال.

ثالثا: الشروط الحضارية:

1- ارتباط الحضارة بالمكان، فالمكان نطاق الحضارة ومرتكزها الذي يمنحها شيئا غير قليل من هويتها، فهو يشد بنيانها إلى جغرافيته، ويلاقي بين أزمنتها فوق تضاريس كينونته، وهو لهذا وذاك يسم منجزها المادي بميسم جباله وسهوله وغاباته وأحراشه وعيونه وأنهاره...الخ، فلا عمران ولا نشاط زراعيا أو تجاريا أو صناعيا إلا وللمكان فيه أثر ووسم، فضلا عن أثره في مجموع القيم والأنساق الثقافية والدينية المميزة له. وإجمالا للمكان أثر في تحديد نسق الاستجابة للطبيعة ومن ثم تجاوزها سواء كان هذا التجاوز تجاوزا ماديا أم معنويا، بل لا مرور من حقبة ما قبل الحضارة إلى الحقبة الحضارية إلا ويجري فوق المكان وفي المكان، وهذا ما يمنح النشاط الحضاري جانبا من جوانب هويته. ولا خفاء أن الحضارة التي تنشأ في بيئة ساحلية بحرية غير الحضارة التي تنشا في بيئة صحراوية، والأخيرة غير التي تنشأ في بيئة جبلية، وهكذا، ذلك ((أن محرك التاريخ ومصدر الشرائع يتحدد في المناخ والامتداد الجغرافي، وعن طريق هذين المتغيرين يمكن أن نفهم مميزات الشعوب المختلفة، وأن نحدد النُظُم والقوانين الملائمة لكل مجتمع))[20].

((والحَضِيرَةُ جماعة القوم، وقيل الحَضِيرَةُ من الرجال السبعةُ أَو الثمانيةُ، وحَضِيرَة العسكر مقدّمتهم)). والبادي هنا أن الهوية الحضارية هوية الجماعة وليست هوية الأفراد، إذ ((لا يمكن فصل الجماعة عن الحضارة إطلاقًا، فلا وجود لحضارة دون جماعة بشرية، والعكس صحيح))[21] بل إن امتلاك نموذج حضاري يستلزم وجود الجماعة العازمة على البقاء والساعية دوما إلى إصلاح ما يمكن أن يهدد ذلك البقاء، وإن استلزم ذلك البقاء عسكرة الجماعة آخر المطاف، شرط أن يخضع العنصر العسكري من عناصر النموذج الحضاري إلى بقية عناصر الحضارة، وأن يكون تابعا ومؤتما بإمامة الفكر وليس العكس.

ولعلنا نستطيع القول؛ إن المواجهة الأولى بين الأمم، بكل ما لتلك الأمم، كل على حدة، من هوية معنوية ومادية، هي مواجهة حضارية، بل إن بقاء الأمة وديمومتها مرهون بما تقدّمه الأمة بعدّهِ واجهتها الوجودية وسابقتها الثقافية التي تتولى مهمة الصدّ والمواجهة الحضارية حينما يقضي السياق التاريخي بذلك.

((والحَضِيرَةُ الصَّاءَةُ تَتْبَعُ السَّلَى وهي لفافة الولد))، للمشروع الحضاري حاضنة، وللحاضنة ارتباط بالأمة. والأمة الولود حضاريا هي الأمة التي لا تتوقف عن انتاج نموذجها الحضاري كلما توفرت الظروف المناسبة للولادة. على أن نضع في الاعتبار أن الوليد الحضاري، أيّ وليد، خاضع لحتمية الشوْب والشوائب، فهو من جهة في مواجهة مع بقايا النموذج

DOI: 10.18018/URUK/017-10/133-143

الحضاري السابق أي ما يسمّى؛ (العناصر الحضارية المتدهورة)[22]، وما يترتب على ذلك من بقاء أفكار ذات قناع جنائزي لا تسمح للوليد الحضاري الجديد بامتلاك حقه في الوجود والنمو والانتشار، فـ((الإنجازات البالية التي تنتقل من حضارة منحلة إلى مجرى عصر جديد كثيرا ما تصبح مثل إفرازات الدورة الجسمية وتفعل فعل السموم))[23]. وهو، من جهة أخرى، في مواجهة مع تحديات الفهم القاصر الذي يخضع لوهم الحضارة ممثلا بما يتخلف عن النشأة الحضارية الجديدة من اكتشافات مادية وممارسات وانتماءات معنوية متدنية تتسرب إلى المضمون الحضاري بقوة لتكون جزءا منه ومكونا رئيسا من مكوناته، ما يؤدي إلى انهياره الفاجع. فمخلفات الحضارة لا تقل خطورة عن مخلفات مفاعل نووي، وليس قذاها ووسخها بأقل كراهة من قذى الولادة البيولوجية المترتب على خروج الجنين من الرحم وما يتبعه في الخروج من قذر يستلزم تنظيفه وتطهيره وتنقيته. ولاشك أن التوجّه إلى مخلفات الحضارة بالعناية والحرص على بقائها وديمومة وجودها والانخداع بأهميتها يعني التآمر الواعي أو غير الواعي على فلسفة الولادة والوليد. وهذا ما يتوقف عنده القرآن، قائلا؛ ((وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ () قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ () فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ))[24].

1- ((والمَحْضَرُ السّجِلّ)).وشرط الحضارة الأول هو الانتقال من الأمية إلى الكتابة، والكتابة هي التي تمنح الفكر روحه وتدفعه إلى مزيد من الرشاد المعرفي روحيا وماديا وتنقل به من حالة الشك والريبة إلى حالة العلم الواعي واليقين المطمئن. وهذا ما يفسر جانبا من جوانب الإشارة إلى (الكتاب) وما يتعلق به من مفاهيم الهدى واليقين في مطلع سورة البقرة، السورة التي تولت تنظيم شؤون البنية المجتمعية للنموذج الحضاري الإسلامي، بعد انتقال المسلمين من مكة/ حقبة الأمية والبدائية والبدوية والفردية، إلى المدينة/ حقبة الكتابة والمدينية والاستقرار والمجتمعية. وبناء على ما سبق يمكن القول إن مهمة الذين يكتبون من أجل التحضّر والحضارة ليست فقط الكتابة بل مهمتهم المشاركة الفاعلة في صناعة النموذج الحضاري وفي حمايته من الانهيار والانحلال من خلال ترسيخ مفاهيم الهداية إلى الحقيقة وحبّها وامتلاك اليقين الكافي بلزوم عيشها ضمن أفقها الروحي الذي لا يجلّيه حق تجليته إلا أصحاب الفكر، الذين يتجاوزون صفة امتلاك تحصيل علمي غلى صفة كتّاب الحضارة وجنودها المدافعين عن صيرورتها الواعية.

2- ((والمُحاضَرَةُ المجالدة وهو أن يغالبك على حقك فيغلبك عليه ويذهب به، المُحاضَرَةُ أن يُحاضِرَك إنسان بحقك فيذهب به مغالبةً أو مكابرة، وحاضَرْتُه جاثيته عند السلطان)). والمجالدة الحضارية ها هنا تعني؛

آ- إن الوازن الوحيد لديمومة حضارة ما جنبا إلى جنب مع حضارات أخرى هو قدرتها على مجالدة غيرها من النماذج الحضارية ومضاربتها فكرا وثقافة ومُثُلا. فإذا عرفنا المُثُل العليا لكل حضارة هي؛ ((المثل الأعلى للفرد، والمثل الأعلى للتنظيم السياسي والاجتماعي، والمثل الأعلى للتنظيم الاجتماعي والروحي والديني، والمثل الأعلى للإنسانية بوصفها كُلّا))[25]، خلصنا إلى أن منازعة النموذج الحضاري من النماذج الأخرى منازعة

DOI: 10.18018/URUK/017-10/133-143

في المثل بعضها أو كلها، وعلى أساس قدرة النموذج الحضاري على الوفاء بمثله يمتلك ذلك النموذج حقه أو شرطه في البقاء.

ب- حاجة النموذج الحضاري إلى تلك المجالدة بل مشروعية تلك المنازعة التي لنا أن نسمها بـ(المدافعة)، بناء على قوله تعالى:((وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ))[26]، ويترتب عليها أن ذلك التنافس الحضاري مدعاة لتجاوز النموذج الحضاري لحالة الانغلاق والعزلة الجغرافية التي تنحو به منحى أيديولوجيا في نهاية المطاف، فضلا عن إفقارها له من حيث سعيه المشروع إلى الانتشار والعالمية.

((واحْتَضَرَ الفرسُ إذا عدا واسْتَحْضَرْتُه أَعْدَيْتُه)). لا شك أن الهوية الفردية للفرس تكمن في قدرته على الجري، بل إن قدرته الفائقة على الجري سبب لتمييزه من غيره من أبناء جنسه، فإذا حصل وتباطأ الفرس، وإذا حصل وعدل عن الجري إلى المشي فلعلّة، وإلا فإن الأصيل فيه هو الجري. ولأن تحقيق المثل الحضارية وتنمية الوسائط المادية الضامنة لبقائها يتطلب المسارعة والتسريع ليس فقط في تبني صيانة المضامين الحضارية من الانهيار بل في تبني فهما جديدا للحضارة، فهما يندمج مع المعطيات المعاصرة للنموذج الحضاري، ويحافظ على مُثله في الوقت نفسه، فهو لا يتخلى عن ملاحقة الوسائط المادية للحضارة، ولكنه وبالمقدار نفسه أو أكثر لا ينسى الجنبة الأخلاقية والروحية للحضارة. ومفهوم (المسارعة) الحضاري الإسلامي، هذا يؤكده القرآن كثيرا، وهو يتوقف عند هذه الحيثية من حيثيات النموذج فيقول: ((أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ))[27].

الهوامش

* دكتوراه دراسات نصّيّة قرآنية/ رئيس قسم علوم القرآن/ كلية التربية/ جامعة القادسية.

(1) ينظر؛ الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي وأزوالد اشبنجلر، جمال بروال؛ ص2.

(2) النساء؛ 1 .

(3) البقرة؛ 213.

(4) المائدة؛ 48.

(5) ينظر؛ لسان العرب، مادة (حضر)، والنمو الحضاري في فلسفة التاريخ -دراسة نقدية مقارنة-، حسن سليمان حسن قيلي؛ ص55- 57، والحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، د. حسين مؤنس؛ 324، ومفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، طوني بينيت، ولورانس غروسبيرغ، وميغان موريس؛ ص225 وما بعدها، و298 وما بعدها، والمعجم الفلسفي، الدكتور جميل صليبا؛ ج1/ ص475 وما بعدها، والإنسان: دراسة في النوع والحضارة، محمد رياض؛ ص 204- 206.

(6) النحل؛ 112.

(7) يس؛ 20.

(8) المؤمنون؛ 43-44.

(9) غافر؛ 4.

(10) الكهف؛86.

(11) الإنسان؛ ص209.

(12) المعجم الفلسفي؛ ج1/ ص476.

(13) لسان العرب، مادة (حضر).

(14) آل عمران؛ 110.

(15) البقرة؛ 143.

(16) الأعراف؛ 172-173.

(17) المائدة؛ 48.

(18) القصص؛ 58.

(19) الأنفال؛ 60.

(20) سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، الدكتور عبدالغني عماد؛ ص194.

DOI: 10.18018/URUK/017-10/133-143

(21) الإنسان ؛ ص209.

(22) المصدر السابق؛ ص241.

(23) فلسفة الحضارة؛ ص58.

(24) الزخرف؛ 23- 25.

(25) فلسفة الحضارة؛ ص 406.

(26) البقرة؛ 251.

(27) المؤمنون؛ 61.

المصادر و المراجع

- القرآن الكريم
- بينوش، برتراند، التباسات الحضارة، ترجمة هدى مقنص، مراجعة سمية الجراح، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2013.
- رياض، محمد، الإنسان- دراسة في النوع والحضارة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.
- مؤنس، د. حسين، الحضارة- دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978.
- برورار، جمال، الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي و أزوالد اشبنجلر، رسالة ماجستير على الآلة الطابعة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2012-2013.
- عماد، الدكتور عبدالغني، سوسيولوجيا الثقافة- المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006.
- اشفيتسر، ألبرت، فلسفة الحضارة، ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي، مراجعة الدكتور زكي نجيب محمود، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (د.ط.تا).
- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، (د.ط.تا).
- صليبا، الدكتور جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
- غروسبيرغ، طوني بينيت- لورانس وميغان موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة- معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2010.

الرسائل والأطاريح

قيلي، حسن سليمان حسن، النمو الحضاري في فلسفة التاريخ -دراسة نقدية مقارنة-، رسالة ماجستير على الآلة الطابعة، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، 2005.

The Concept of Civilization and the Quranic Meaning of the Term from a Lexical to Quranic Meaning A Hermeneutic Study

ABSTRACT

- According to the Quranic text, the concept of civilization has various aspects. It is a village, city, nation, country and people. Therefore, it seems important to consider each one of these terms to construct the concept of

civilization and its Islamic cultural project.

- To understand the Islamic cultural project should, first of all, consider the attribution of this project to religion and then look at the methodic and indicative frames of the religion itself.
- It seems inappropriate to study the methods and social aspects of civilization separately and in isolation of its language. This separation may lead to the obliteration of the cultural identity and distort its understanding. Hence, it is important to admit that we don't have the enough scientific ability to understand the cultural identity of a nation without understanding what distinguish it from the other cultures. Accordingly, what distinguish the Islamic culture is that it depends in its historic existence on a valuable and knowledge network where language considered to be the cornerstone or its incorporeal structure.

Finally, it can be concluded that the most important confrontation between nations is a cultural one. That's to say, the existence of each nation and its development depends on its ability to be existed and its cultural history which function as the main defender in any cultural challenge that may be imposed by the historic context.